الفصل الرابع

الآداب الزوجية وأخلاقها الحميدة

البحث الأول:

إصلاح النفوس والضمائر لإصلاح حال الأسرة

لقد حرص الإسلام على تزكية المسلم وتطهيره من الدنس والرجس والذنوب والمعاصي بتربية الضمير التربية الإيمانية الصّحيحة. وتعميق ذلك في نفسه حتى لتجدَ هذا الإيمان يشرق في النفس وتفيض أنواره وآثاره على السلوك والأخلاق وسائر المعاملات، فالمؤمنون والمؤمنات المؤتمرون بأمر الله والمنتهون عمّا نهى الله، يتصفون بصفة الحياء؛ التي هي من أجلِّ الأخلاق التي يمنحها الله للعبد ويجبله عليها. فالحياء يراد به في الإسلام ذلك الشعور من الخجل الذي يشعر به الإنسان في نفسه أمام فطرته، وأمام الله تعالى حينما يميل إلى منكر، وهذا الحياء هو الحارس على الضمير الذي يكفُّ الإنسان عن الإقدام على الفحشاء والمنكر فهو إذا ارتكب سيّئةً أو معصيةً بدافع جبلته الحيوانية، حزّ في نفسه هذا الحياء ونغَّص عليه عيشه، ويعود بالتّوبة والنّدم وإصلاح ما فات، والعزم على التزام جانب الصّواب، وقد أقسم الله بالنّفس اللّوامة، أي التي تلوم صاحبها عند ارتكابه المعاصي وتردعه عن مفارقتها وتحثُّه على التّوبة والنّدم. في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[1]. فاللوامة: صيغة مبالغة من اللوم، وهو شدة التّعنيف والمؤاخذة، فالنّفس اللّوامة: توقظ في

(١) سورة القيامة، الآيتان: ١، ٢.

صاحبها روح الإنابة والتّوبة، وتحمله حملاً على الرجوع عن غير سبيل المؤمنين، والاتجاه إلى الله تعالى لإصلاح ما فات، وطلب العفو عمّا اجترح من سيئات.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تبيّن حقيقة الحياء الذي هو من جملة صفات النّفس اللّوامة، وما له من أثر في توجيه الإنسان إلى ما يعود بالنّفع على نفسه ومجتمعه، فهو جزء من الإيمان، بل هو قوام الفضائل ودعامة أساسية من دعائم الأخلاق الحميدة التي يبني عليها سلوك الفرد المسلم. يقول رسول الله ﷺ: «**إنّ الحياءَ لا يأتي إلّا بخير**»[١]. وقال أيضاً: «**الحياءُ خيرٌ كلُّهُ**»[٢] أي أنّ الحياء خيرٌ وكلُّ ما يصدر عنه من سلوك قولي أو فعلي فهو خيرٌ، ولما كان الحياء تغيّراً نفسياً، وخُلقاً باطنياً يحول بين المرء وبين القبائح أو يمنعه من عمل ما يعاب به ويذم، أو يُنقد عليه ويُعنّف، كان لا شك خلقاً محموداً، لا ينتج إلّا خيراً.

أمّا من فقد هذه الصّفة أو هذا الخُلُق خرج عن الفضائل كلها وتجرّأ على فعل المعاصي، يقول ﷺ في تحذير وذم من فقد الحياء: «**إنّ ممّا أدْرَكَ النّاسُ من كلام النّبوّة الأولى: إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ**»[٣]، أي أن من لا يستحي فإنه يصنع ما يشاء من أفعال المعاصي والمنكر، فهذا وعيد للذين لا يستحيون، لأنّ الحياء أصل كل أعمال الخير والمعروف، روي عنه ﷺ أنه مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «**دَعْهُ فإنّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ**»[٤].

فالحياء يمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي، ومقارفة الآثام، ويكف صاحبه عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على مكارم الأخلاق ومعاليها فهو

---

(١) صحيح البخاري ج ٨، ص: ٣٥.
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٣، ص: ١٥١.
(٣) صحيح البخاري ج ٨، ص: ٣٥.
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٣، ص: ١٥١.

من خصال الإيمان، التي يربيها الإسلام في النّفس فترتقي مدارج التقوى وتصل إلى درجة الإحسان يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾(١). والله ﷻ مطّلع على النّفوس وما تخفي الصدور فهو ينبّه عباده ويُحذّرهم بقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾(٢).

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يُخبر الله ﷻ عن علمه التّام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناسُ علمه فيهم، فيستحيُوا من الله حقَّ الحياءِ، ويتَّقُوه حقَّ تَقْوَاهُ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنّه يراه، فإنّه ﷻ يعلمُ العين الخائنة، وإنْ أبدت أماناً، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر».

بهذه التّربية الإيمانية يُري الله ﷻ عبادَهُ المؤمنين ويُرشدهم إلى اتّباع ما يُصلحهم ويُنقّي ضمائرَهُم ونفوسَهم من هوى الشّيطان ونزعاته ولم يكتف بهذا بل شرع وسائل وقائيّة حتى تساعد الإنسان على تخطي الإغراء ومقاومة الفساد.

الوسائل الوقائية لحماية سلامة النّفس:

١ - **غض البصر**: أمر ﷻ بغضّ البصر لأنّ النظرة هي أكبر خائنة نفسيّة، وهي سهم من سهام إبليس المسمومة، وهي نافذة القلب وبريده، لذا ورد الأمر في القرآن والسّنّة بغض النّظر، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾(٣).

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «البصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طريق الحواس إليه، ويحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه وغضه

(١) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٩.
(٣) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله»[١]. لذا ورد النّهي عن النّبيّ ﷺ عن جرير بن عبد اللّه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءةِ فأمرني أن أصرِفَ بصري»[٢] من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس في الطرقات، فإن كان لا بدّ فيجب غضُّ البصر وعدم التّطلّع على عورات النّاس.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «**إيّاكم والجلوس في الطرقات**» قالُوا: يا رسول الله، ما لنا بدٌّ من مجالسنا نَتَحَدَّثُ فيها؟! قال رسول الله ﷺ: «**فإذا أبيتُمْ إلّا المجلسَ فأعطُوا الطّريقَ حقَّهُ**» قالوا: وما حقُّهُ؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفُّ الأذَى، وردُّ السّلام والأمرُ بالمعروف والنّهي عن المنكر**».

ومن حرص النّبيّ ﷺ تنبيهه على غض البصر وعدم إرساله يقول ﷺ: «**يا عليّ! لا تُتْبِعِ النّظرةَ النّظرةَ، فإنّ لك الأولى وليستْ لك الآخرة**»[٣].

٢ - **النّهي عن التّبرّج وإظهار الزّينة والعطر**: وذلك كي يظل المجتمع نَقِيًّا سليماً، وتبقى النّفوس طاهرةً من نوازع الشر والفتنة، فأمر ﷻ النساء أن يخفين زينتهنّ وحُسنَهُنّ، ونهاهنّ عن التّبرج، والسّفور. قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٤].

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال، فذلك تبرج الجاهلية. وقال مقاتل بن حيان: التّبرج: أنّها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك منها[٥].

وقد وقع ما نهى عنه رسول الله ﷺ من تبرّج وسفور واختلاط، وبالغت النساء في إظهار زينتَهُنّ ومحاسنَهُنّ واستجبنَ لنداء الشيطان وأعوانه من الكفرة

(١) الجامع لأحكام القرآن ج ١٢، ص: ٢٢٣.
(٢) صحيح مسلم ج ٣، ص: ١٦٩٩.
(٣) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ج ٨/ ٦١.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٣، ص: ٤٨٢.

الملحدين الذين زيّنوا لها الخروج عن أوامر الله، فخرجت تعمل مختلطةً بالرجال في كل مجال تزاحمهم وتفتِنُهُمْ بخلاعتها وميوعتها واستهتارها بالآداب والأخلاق الإسلامية. تقلد بذلك نساءَ الغرب، بل قد تفوقهنّ في التّكشّف وإظهار ما أمر الله بستره دون حياء أو خجل تغري بذلك شباب الأمة الإسلامية فتوقعه في الفتنة وارتكاب الفواحش، فلما تيسَّرت سبل اللذة المحرمة زهد الرجال في النساء وتركوا الزّواج فانتشرت ظاهرة العنوسة المزمنة، وفضّلَ الرِّجالُ حياة العزوبية على حياة الأسرة الآمنة المطمئنّة، لكثرة العرض وتوفر المُتَع ورخصها، ولن تعود الأمور إلى طريقها الصّحيح إلّا إذا عادت المرأة إلى حشمتها وحجابها وحيائها. ففيهما الحماية والصون لعفافها واحترام لشخصيتها، فعلى المرأة أن تلتزم بأوامر الدِّين والشّرع لأنّها الطريقة المُثْلَى لتطهير المجتمع من آثار الفواحش والابتعاد بها عن عوامل الفتنة ودواعي الغواية، فالإسلام يخفف موارد الفساد والفتنة ويسدُّ كلَّ الذرائع الموصلة إلى ارتكاب الفواحش، فنراه ينهَى النّساءَ عن الطّيب والتّعطر أثناء الخروج، ولو كن مستترات محجّبات، لأن العطر ينتشر في الجو فيحرك العواطف والشهوات، ويُثير الخيال، ويُحرك الرّغبة الجنسية لدى الرجال.

يقول رسول الله ﷺ: «**كلُّ عينٍ زانيةٌ، والمرأةُ إذا استعطرتْ فمرتْ بالمجلس فهي كذا وكذا، يعني زانية**»[1]. وكل ما يؤدي إلى إثارة الرغبات وكوامن الغريزة فهو محرم حتى ولو كان مجرد بعض الحركات والأصوات التي تؤثر في سمع السّامع، فتثير في نفسه الرّغبة الهاجعة، يقول تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[2]. ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يُعلم صوتُهُ، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجالُ طنينَهُ، فنهَى الله المؤمنات

(١) تحفة الأحوذي، شرح جامع الترمذي ج ٨، ص: ٧١. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

عن مثل ذلك. وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي[١]. ومن ذلك ما ترتديه المرأة من أحذية ذات كعوب معدنية تطرق السمع بوقع خطواتها، ممّا يُثير في النّفس الرّغبة في التّعرف على لابسته ويفتن سامعها بالنظر إليها والتمعّن في مفاتنها، ولم يقتصر النّهي عن ذلك كله، بل حتى صوت المرأة. فقد وجَّه الله ﷻ الخطاب للمرأة المسلمة من خلال زوجات النّبيّ ﷺ - وهنّ القدوةُ الأعلىٰ - بألاّ يَخْضَعْنَ بالقول حتى لا يطمع ذلك فيهن مرضَى القلوب والنفوس، فيقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٢]. ليس معنى ذلك أن ترفع المرأة صوتها بالغلظة والخشونة وإنّما يجب أن يكون صوتها الطبيعي في المخاطبة المعتدل الخالي من التّكسّر والإغراء وتكون جادّة في كلامها متزنة الشخصية، وبذلك تحظى باحترام المجتمع وبالأجر العظيم من الله تعالى.

٣ - **الحجاب وستر العورة**: إنّ من أسباب انتشار المغريات التقليد الأعمىٰ لكل ما هو آت من الغربِ. فبيوت الأزياء ومصانع التجميل الغربية وجَدَتْ من جسَدِ المرأة تجارةً رابحةً، فأنتجت - ولا تزال تُنتج إلى اليوم أزياء فاضحة -، ومساحيق ملونة لكل فصل من فصول السنة بل لكل مناسبة، وروّجتْ لمنتجاتها بمختلف الوسائل الإعلامية والدعائية. ونجحت خطة اليهود في إفساد المرأة المسلمة فانجرفت في تياراتهم الهدّامة. فخرجت متبذّلة سافرةً لا تجد أيَّ غضاضةٍ في اختيار كل ما يُغري من الطّيب واللّباس لترتديه، وتخرج من المنزل إلى أماكن اللّهو والفجور، من مسارح وأندية وملاعب ومصايف، فكان من نتائج ذلك أن انتشر الفسق والزّنا، وانهدم كيان الأسرة، فعزف الشّباب عنها، وانهارت الآداب وانحلت الأخلاق، فلا صلاح للمجتمع إلا بالرّجوع إلى تطبيق تعاليم الإسلام الذي فيه الخير والسعادة لبني البشر لأنّ أول ما اهتمَّ به الإسلام هو طهارة المجتمع والأفراد، ومن ذلك إبطال عادة التعري وإبراز المفاتن

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٣، ص: ٢٨٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

والعورات، التي كانت من خصائص الجاهلية القديمة فأصبحت من خصائص الجاهلية الحديثة، لا تختلف عنها بل تزيد. ويبيِّن القرآن الكريم الأساس النّفسي في ارتكاب هذه الموبقات وهو التقليد الأعمىٰ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عُراةً يقولون: نطوف كما ولدتنا أمّهاتُنَا، وأكثر ما كان النساء يطفن عُراةً باللّيل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أنّ فعل آبائهم مستند إلى أمرٍ من الله وشرعٍ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك[2]. فلما جاء الإسلام أمرَ النَّاسَ بالعودة إلى فطرتهم السّويّة، وترك الجاهلية الهابطة إلى درك الحيوانية «من كشف الأجساد والعورات»، وهذا مما لا يليق بالإنسان الذي كرَّمَهُ الله ﷻ، فقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[3]. واللباس قد يطلق على ما يُواري السوأة، وهو اللباس الداخلي، والرياش قد يُطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمَّلُ به، وهو ظاهر الثياب، كما يطلق الرياش على العيش الرّغيد، والنّعمة والمال، وهي كلها معان متداخلة ومتلازمة، وكذلك يذكر هنا «لباس التّقوى» ويصفه بأنّه خير!. فهناك تلازم بين شرع الله، - اللباس لستر العورات والزّينة -، وبين التقوى، كلاهما لباس: هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذلك يستر عورات الجسم ويُزينه، وهما متلازمان، فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عريّ الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرّى، وأن يدعو إلى العِريّ؛ العريّ من الحياء والتّقوى، والعريّ من اللباس وكشف السوءة! إن ستر الجسد حياءٌ ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي - كما تزعم الأبواق المسلّطة على حياء النّاس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق الخطة اليهودية

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٢، ص: ٢٠٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون. إنّما هي فطرة خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر، وأقدرهم على تنفيذها بما سخَّر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق، والله يُذكّر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والسّتر صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1] ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الجملة الضخمة الموجهة إلى حياء النّاس وأخلاقهم والدّعوة السّافرة إلى العري الجسديّ - باسم الزينة والحضارة والمودة - وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم.

إنّ الحياء من الإيمان وتقوى الله ومراقبته في السر والعلن تقتضي العمل بأوامره واجتناب نواهيه، فستر الجسد والعورة، مأمور به كل إنسان، وخاصة المسلم ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين النّاس، واختلفُوا في العورة، وخلاصة الخلاف أن عورة الرجل ما بين سرّته وركبته، وعورة المرأة كل جسدها ما عدا الوجه والكفينِ.

البحث الثاني:

وجوبُ الأدب الحَسَن بينَ الزّوجين

إنّ الأدبَ الحسنَ والخُلُقَ الحسنَ واجبٌ بين الزوجين - وهو ما يُقال عنه: الاحترام المتبادل - وهذا هو المصباح الذي يشعُّ في جوّ الحياة الزوجيّة بأنوارها وضيائها، فالزّوجُ يُحبُّ أن يشعر باحترام زوجته إيّاه، وأنّها تسعى إلى إيجاد التّفاهم معه بالفطرة السّليمة، فيجب على الزوجة أن تذكره ذكراً حسناً، وأن تفخر به أمام أهلها وأمام أهله، فالزّوج الذي تقدّره زوجتُهُ يزيدُ من تقديره لها، والزوجة التي يُقدّرها زوجها يزيدها تقديراً له.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

وأمّا تلك التي تبخسُ من قدر زوجها، فلا تعترف بفضله، ولا تعتزُّ بهِ، فهي تفوّت على نفسها حقَّ تقدير زوجها لها، وكذلك الزوج الذي لا يعترف بفضل زوجته ولا يعتزُّ بها، فهو يجرُّ على نفسه سُخْطَ زوجته عليه.

وما أجمل أن يكون الاحترام المتبادل بين الزّوجين قائماً على الدّوام، وأن يكون عن طيب خاطر وراحة نفس، لأنه يُصبح مع الزّمن أمراً طبيعياً، حيث يكون كلٌّ منهما حريصاً على حفظه لشعور الآخر.

وما عسى أن يكون هذا التّبادل الإيجابي بين الزّوجين إلّا أن يعكس على حياتهما المودّة والألفة والمحبّة.

إنّ الكلمة الطّيّبة بين الزّوجين لتعملُ عملها الفاعل في تحقيق التّفاهم، حتى يشعرَ كلٌّ من الزوجين أنّه بحاجة إلى الآخر، لاستكمال سعادته، وكُلّنا يَوَدُّ أنْ يُقدَّرَ وأن يُذْكَرَ بخيرٍ، وأكثرُنَا لا يألُو جهداً في إتقان عمله إذا سمع كلمةَ حمدٍ، أو عبارةَ تقديرٍ، فالطريق إلى قلب الزوجة أن تدعها تدرك أنّك تعرف قيمتها ولا تنكرها.

إنّك تعمل جاهداً على إجابة مطالبها المادية، فهل فكرت في تغذية روحها وعقلها؟ إنّ ما يتعاطاه الجسم لا يلبث أن يُفقد، أمّا الروح فهي بحاجة إلى إشباع عاطفي، فإذا فقدت هذا العنصر غدت كالتمثال الذي لا حراك به ولا حياة!.

وإذا كان من نقد لتصرفاتها فإنه يجب ألا تنسى أيضاً الاحترام والتقدير، فحاذر أيضاً الطريقة المباشرة، وتجنب النقد الصريح لتصرفات زوجتك وذوقها وزينتها، ويكفيك إهمال تقريظ ما لا يُعجبك منها، ثم اختلقْ فرصةً تمتدح بها شيئاً آخرَ لديها، فعند ذلك ستشعر هي بالمقارنة أن الشيء الذي أهمل الزوج امتداحه لم يعجبه، ومن ثم تكف عنه إن كانت حصيفةً. إنّ المرأة أسيرة لمن يُعاملها بحسن التقدير والرقة والدّين والتّسامح، والتجاوز عن التّوافه والمحاسبة الرقيقة والعتاب النّاعم الخفيف الوقع على الأسماع، لأنّ كل ذلك احترام منك لشخصيتها وإكرام لنفسها، بل هو في الواقع إكرام لنفسك في الوقت نفسه،

فالمرء لا يتوخى كرم النّفس والأدب مع الغير لأنّهم سادة كرام فحسب، بل لأنّه أيضاً سيد كريم وإنسان كبير. وهنا يجب أنْ نعلم أنّ الالتزام بالآداب الحسنة الكريمة من حقوق الأسرة.

فيجب على كلّ فرد في الأسرة أن يعمل على أن يكون بيته أسعد مكان، فخشونة المعاملة وخشونة القول والإساءة وإثارة الشحناء ونحو ذلك، إذا كانت كلها خارج البيت رذيلة فهي في البيت أرذل، وممّا يُؤسف له أنّ كثيراً من الناس يتجملون في أخلاقهم مع أصدقائهم ويتبسَّطُون في الحديث مع من يتعاملون معهم، فإذا حلُّوا في بيوتهم تبدّلت فيهم هذه الأخلاق الرضية إلى قسوة وخشونة وفظاظة، وانقلب الصوت الهادىء المؤدّب إلى هجرٍ في القول وسُوءٍ في الأدب، والحق أنّ أدلّ شيء على الأخلاق الحقيقية إنّما هو خُلُق البيتِ لا خُلُقُ الشارع، فخُلُقُ الشّارع خُلُقُ التّصنُّعِ، كالثوب الجميل يلبسه صاحبه إذا خرج، ويخلعه إذا عاد!.

فلا يليق بالزّوج أن ينالَ منه خيرَ خُلُقه الحسن رجلُ الشّارع، ولا ينال منه شيئاً من أهله. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ، وأنا خيرُكم لأهلي**»[١].

البحث الثالث:

آداب الزوجة وأخلاقها في بيت الزوجية

إن آداب الزّوجة في بيت الزّوجية لها آثارها الطّيّبة في الحياة، وهذا تفصيلها: إنّ الزوجة الكريمة في أعين الرجال هي التي لا تنسى أنّها أنثى، فكلمة امرأة عند معظمهم تعني «الأنوثة»، والأنوثة تعني بدورها الرقة والجاذبية

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣١٤.

والدّلال. غير أننا نشهد في أيامنا هذه بعض الدعوات المنحرفة التي يعتقد أصحابها أن الجاذبية والرّقة والدّلال أمور تسيء إلى استقلالية المرأة، ولا تفيد إلّا في إذكاء روح التّعالي والغرور عند الرّجل!.

ولا شك أن مثل هذه النظرة خاطئة تماماً ومنافية لمنطق الأشياء حسبما يشير كثير من علماء الاجتماع والنفس، فالأنوثة الكامنة في جمال المرأة تقوم بالدّور الأساسي في الإبقاء على التّوازن الطبيعي في العلاقة بين الجنسين، مثلما أن جاذبية الزهرة اليانعة ونضارتها هما علة التّوازن الطبيعي مع النّحلة التي تمتص الرحيق لتحوّله إلى عسل، وفي نفس الوقت تنقل غبار الطلع من زهرة إلى زهرة؛ فيكون التلقيح، ويكون الثمر، وتكون الحياة!.

إنّ كل امرأة تُعنى بمظهرها الخارجي، وتسلك سلوك الأنثى، فتحرص على إبراز رقتها، وإظهار جاذبيتها، وتتحلى بدلالها، مثل هذه المرأة تعطي الدليل على تقديرها لأنوثتها، وتبرهن على رغبتها المشروعة في أن تجذب وترضي زوجها.

ومن أدبها أن تراعي الأولويات:

تعمل الزّوجة الكريمة غالباً وفقاً لنظام الأولويات، وفي هذا النظام تحتل العلاقة بين الزوجين - العاطفية والجسدية - المقام الأول.

فلا تهتم المرأة بشيء مثل اهتمامها بزوجها، لأنها تعلم أن هذا هو أحد مقومات السعادة الزوجية، يقول أحد كبار علماء النفس: «إن المؤسسات الزوجية الناجحة هي التي تقوم على [نظام الأولويات] المدروس دراسة وافية». وهذا يعني أنه لا ينبغي للمرأة أن تترك حبها لأولادها واهتمامها بهم يطغى على حبها واهتمامها بزوجها.

ومن مقتضيات نظام الأولويات ألّا تظن المرأة أن عملها الخاص يأتي في المقام الأول، فالمقام الأول هو للعلاقة بينها وبين زوجها كما سبق أن أشرنا. وعلى ذلك فيلزم أن تتخلى المرأة عن عملها إذا وجدت فيه ما يعارض أو يُعكّر صفوَ حياتها الزوجيّة.

ومن أدبها أن تكون منطقية في متطلباتها:

وفي المَثَلِ الطّريفِ: «إنّ المرأة لا تريد إلّا الزّوج، فإذا حصلتْ عليه أرادت كلَّ شيء!».

بعض النساء يدفعن أزواجهن في سبل شائكة وملتوية لا قِبَلَ لهم بها، ثم يثِرْن ويتذمرن إذا أعلن الزّوج عدم قدرته على تحقيق شيء من تلك المتطلبات.

وهذا يؤدي وفقاً لطبيعة الأمور بالحياة الزوجية إلى طريق مسدود بالعقبات المصحوبة بالمشاحنات؛ ممّا يعني نزاعاً في صميم تلك الحياة قد يترتب عليه انهيارها.

ومن هنا قال الشاعر:

إنّك إنْ كلفتني ما لم أُطقْ ساءك ما سرك مني من خلق

وقد اعتبر معاذ بن جبل المرأة التي من هذا القبيل من الفتن وعلى الخصوص فتن السّراء، التي يُخشى على المؤمنين منها.. فعن رجاء بن حَيْوة، عن معاذ بن جبل قال: «إنّكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإنّي أخاف عليكم من فتنة السّراء: وهي النّساء، إذا تحلين بالذهب، ولبسنَ ربْط الشّام، وعصب اليمن؛ فأتعبن الغني، وكلفنَ الفقير ما لا يُطاق».

والمرأة الصّالحة لا تمثل إطلاقاً أي لونٍ من ألوان الفتنة للرجال؛ بل هي عون لهم على الفتن؛ إذ تُحكّم دائماً عقلها في مثل هذه الأمور، فلا ترهق زوجها بطلبات لا منطقية، ولا تحمله فوق طاقته، ولا تثقل كاهله بالديون في سبيل إشباع بعض الرغبات أو النزوات. ومن الأمثلة النادرة التي يحدثنا به التاريخ عن مثالية بعض الزوجات اللاتي يقدِّرن ظروف أزواجهن تقديراً لا حدّ له - حتى لو كان على حساب مصلحتهن - ما ترويه كتب الطبقات عن فاطمة الزهراء عندما مرت بها وبزوجها عليّ بن أبي طالب بعض الصعوبات الاقتصادية، مما أدّى بها إلى أن تطوى ثلاثة أيام جوعاً، ولما رآها الإمام عليّ وقد اصفرّ لونها، قال لها: ما بك يا فاطمة؟

قالت: منذ ثلاث لا نجد شيئاً في البيت.

فقال لها: ولماذا لا تخبريني.

فأجابت: ليلة الزفاف قال لي أبي رسول الله ﷺ: «**يا فاطمة إذا جاءك عليّ بشيء فكليه، وإلا فلا تسأليه!**».

ومن أدبها أنْ لا تختلق النَّـكَد:

إن سعادة الرّجل في حياته تتوقف على مزاج زوجته أكثر من أي شيء آخر.

وقد تتمتع المرأة بكل فضيلة أخرى تحت الشمس، ولكن هذه الفضائل كلها تصبح لا وزن لها ولا قيمة إذا كانت المرأة ذات «مزاج نكدي».

فالمزاج النكدي للمرأة يسبب من التعاسة للرجل ما يسببه السّفه.

وتدل الاستقراءات العديدة لكثير من الزيجات على أن النّكد الذي تختلقه المرأة هو من أكبر العوامل التي تقوّض صرح السعادة الزوجية.

وقد قال كثير من الرجال: إن أسوأ صفة من الممكن أن تتصف بها المرأة هي: «اختلاق النكد».

وتشير الدراسة المتأنيّة للأسباب التي تدفع بعض الرجال إلى هجر زوجاتهم، إلى أن معظم الرجال لا يفعلون ذلك بحثاً عن زوجة أجمل أو أكثر شباباً، وإنما فراراً من الجو القاتم المحطم للأعصاب الذي كانت تظلل به الزوجة الأولى البيت مما تختلقه من نكد، وتفتعله من صِدَام!.

وبرغم ذلك، فما زال كثير من النساء منذ عهد الكهوف حتى اليوم يحلو لهنّ «اختلاق النكد»! في حين أن المرأة الصّالحة التي يكرم الله تعالى بها بعض الرجال، تجد سعادتها في كونها نبعاً فيّاضاً بالحبّ والسكينة.

ومن أدبها أن تحافظ على صورتها الحلوة:

لعل أول ما يجعل الرّجل يتعلق بالمرأة هو صورتها الحلوة التي رآها عليها أول مرة. ولكن للأسف بعض النساء ينسين هذه الحقيقة بعد الزواج؛ فيهملن في

أنفسهنّ شيئاً فشيئاً؛ فتراها في المنزل منكوشة الشعر، أو تعصبه بإهمال، ورائحة المطبخ تستقبلك منها، وتظل مرتدية الملابس التي كانت تؤدي بها سائر أعمال المنزل، متجاهلة الذوق العام والآداب المرعية والجوانب النفسية والجمالية، ولا تزال مصرّة على هذا الإهمال لا سيما بعدما يجيء العدد الكافي من الأولاد؛ فها هي قد كبّلت الرجل فلا يستطيع فراراً.

وهذا خطأ قاتل؛ إذ يؤدي إلى تصديع وانهيار الصورة التي رسمها الرّجل عن المرأة ساعة زواجه بها؛ ولا شك أن انهيار صورة المرأة الحلوة في نظر زوجها سيؤتي عواقبه الوخيمة.

ولذلك لا نندهش عندما نجد زوجة يهملها زوجها، ويتطلع إلى غيرها، بينما نجد زوجة أخرى قليلة الجمال ولكنّها تمتلك قلب زوجها وعواطفه بحفاظها على أناقتها، وحرصها على نظافتها وبهاء زينتها وملبسها.

ومن أدبها أن تتحلّى بـ «اللّباقة»:

تضعُ الزّوجةُ الكريمة في حسبانها دائماً أنه ليس هناك أجدى من «اللباقة» في تحقيق الانسجام مع الرّجل، فهي السحر الذي يسمح لها أن تنفذ إلى أعماق قلبه ووجدانه في أغلب الأحيان.

واللّباقة تعني بكل بساطة: الكلمة المناسبة، الفعل الدائم، وردّ الفعل الذكي.

أو بعبارة أخرى: إن المرأة اللّبقة هي التي تلبس لكل حالٍ لبوسها! وتستطيع أن تحول الموقف المضاد بذكاء الكلمة والفعل إلى صالحها. ومن أفضل ما يحدثنا به التاريخ من لباقة المرأة أَمَة كانت أو حرّة ما يرويه الأصمعي في الأغاني، فيقول: دخل رجل على الرشيد ومعه جارية للبيع، فتأمّلها الرشيد، ثم قال:

خُذْ جاريتك، فلولا كلف في وجهها، وخنس في أنفها، لاشتريتها. فانطلق الرّجل بها، فلما بلغت السّتر، قالت: يا أمير المؤمنين، أرددني إليك، أنشدك بيتين حضراني، فردّها. فأنشدت تقول:

ما سلم الظبيُ على حُسنهِ كلا ولا البدر الذي يُوصف
الظبي فيه خُنْسٌ بيِّنٌ والبدرُ فيه كَلَفٌ يُعرف

فأعجبت الرشيد بلاغتُها، فاشتراها، وقرّب منزلتها، وكانت من أحظى جواريه عنده.

وأيضاً ممّا يرويه المؤرخون في الدّلالة على لباقة بعض النساء: أن خالد بن يزيد بن معاوية وقع يوماً في عبد اللّه بن الزبير منافس بني أميّة اللدود، وأقبل يصفه بالبخل، وكانت زوجته رملة بنت الزبير أخت عبد اللّه جالسة، فأطرقت ولم تتكلم بكلمة، فقال لها خالد: ما لك لا تتكلّمين؟! أرضىً بما قلتُه أم تنزّهاً عن جوابي؟! فقالت: لا هذا ولا ذاك! ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال، إنما نحن رياحين للشّمّ والضّمّ! فما لنا وللدخول بينكم؟!. فأعجبه قولها ورجاحة عقلها!.

ومن المعلوم أنّ العرب كانوا يفضلون البكر عن الثيب، ولكن برغم ذلك أحياناً كانت الثيب تجذبهم إذا ما تميزت باللّباقة وذكاء الكلمات، مما يكشف لنا عن أهمية هذه الصّفة في المرأة بالنسبة للرّجل.

فمثلاً: عرضت جارية على الخليفة المتوكل، فقال لها: أبكرٌ أنت أم إيشْ؟
فقالت: أنا إيشْ يا أمير المؤمنين.
فضحك واشتراها.

وقال الجاحظ: قلت لجارية ببغداد، أبكر أنت؟ فقالت: نعوذ بالله من الكساد.

وقال عليّ بن الجهم: اشتريت جارية، فقلت لها: ما أحسبك إلّا بكراً!؟ فقالت: يا سيدي كثرت الفُتُوح في زمان الواثق.

فتلك النّصوص والوقائع تكشف لنا مدى أهمية لباقة المرأة وقدرتها على الحديث الذكي، بالنسبة للرجل. وما أجدر المرأة أن تُنمّي من قدرتها على انتقاء ألفاظها، واختيار كلماتها، وحسن حديثها؛ فإن هي استطاعت ذلك أمكنها أن تضيف إلى مقوماتها الجذّابة صفة جديدة.

ومن أدبها أن تحرص على تحصيل خبرات جديدة:

تتميّز بعض النساء عن غيرهنّ بقدرتهن المتواصلة على تعلم كل جديد، والاستفادة المتوالية من خبرات الآخرين وتجاربهم انطلاقاً من الإيمان القوي بأنَّ أفضل وسيلة «للتجدد» هي التعلم المستمر وإضافة خبرات جديدة إلى خبراتها السابقة.

ومثل هذه المرأة تعتبر نعمة من نعم الله على بعض الأزواج، أمّا الأخرى فنقمة وبلاء عليه؛ فليس أصعب على الرّجل وأدعى لشعوره بالسأم والملل من امرأة تقليدية لا تجدد نفسها وترفض تعلم أساليب وخبرات جديدة تُعلي من قدرها وتزيد من ثقافتها، وتنمي شخصيتها.

وقد حدثني صديق عن واحدة من هذا الصنف قضت على حياتها مع صديق له بسبب إصرارها على ما اعتادت عليه من عادات متخلفة تعكس وجهة نظر غير سوية للحياة ولطبيعة العلاقات الإنسانية. فخسرت تلك الحمقاء - على حد تعبير ذلك الصديق - رجلاً من الصعب عليها أن تعوضه. والمرأة الكريمة على النقيض من تلك الحمقاء؛ حيث تتمتع بعقلية مرنة تتقبل كل جديد، وتتعلم من كل تجربة، وعندها الاستعداد للتخلي عما تعلمته من أساليب غير ناضجة لا تتلائم بأيّ حال من الأحوال مع ظروف حياتها الجديدة، ولذا فهي امرأة تملك من النّضج والاكتمال ما يتيح لها أن تواكب حركة الحياة والتطور الإنساني في إطار تعاليم دينها وقيمه العُليَا.

ومن أدبها أن تكونَ مستقلَّةَ الشخصية عن أمّها:

أحياناً بعض الزوجات تحتم عليها الظروف أن تظل بعد الزواج طفلة تعتمد في كل شيء على أمها، ولا تستطيع أن تتصرّف في شؤونها وشؤون زوجها إلّا على ضوء ما تُمليه عليها والدتُها؛ ممّا قد يضيق به صدرُ الرّجل الذي يُريد لزوجته أن تكوّن شخصيةً مستقلةً تصدر في أفعالها عن وعي ناضج وتفكير شخصي واعٍ.

ولا شك أن مثل هذه الزوجة إنما ينقصها نضج الشخصية الذي يسمح لها بأن تستقل في تفكيرها وسلوكها عن والديها أو من كان يقوم مقامهما.

ولسنا بحاجة للتأكيد على أن المرأة الصّالحة بعقليتها المتكاملة وشخصيتها النّاضجة، مستقلة تماماً عن كل واحدٍ سوى زوجها الذي يمثل نصفها الآخر.

ومن أدبها: أن تجيد معاملة أهل الزّوج:

كثيراً ما تحدث مصادمات بسبب عدم القدرة على التعامل مع أهل الزّوج، فقد يكون أحدهم لا يُحْسِنَ اختيار ألفاظه، أو سيّىء التّصرف، ولا سيما الحموات.

والمرأة العاقلة هي التي تستطيع كظم غيظها، وتلتمس الأعذار لمن تتعامل معهم، ولا تعتبر زوجها مسؤولاً عن تصرفات أهله، فلا تزرُ وَازرةٌ وِزْرَ أخرى.

ومن أفضل الأساليب التي تلجأ إليها الزّوجة الحكيمة أنها تضع نفسها موضع حماتها، وتعاملها بالشكل الذي تحب أن تُعامل هي به عندما تُصبح حماة. وعندما تشعر الزّوجة هذا الشعور، وتعمل من ذلك المنطلق فسيهون عليها كثيرٌ من المُنغّصات التي تُعكّر عليها صفوَ علاقتها بزوجها.

ومن أدبها أنْ تعلم أنّ النّظافة أبقى لها من الجمال:

والزّوجة الكريمة تعمل دائماً على أن يأنس منها زوجها التجمل والزينة، وتحرص على أن تبدو نظيفة في نفسها وفي بيتها وكل متعلقاتها؛ لأنّها تعلم أن النظافة أبقى لها من الجمال، وأنّ الزّوجة المهملة لنظافتها تصبح مُنفّرةً لزوجها.

ومن أعجب الأعاجيب أن هناك من النساء مَن تُصِرُّ على أن ترتدي أجمل الثياب وتتحلّى بأنواع الحليَّ حينَ تخرج من المنزل، أمّا في البيت فلا جمال ولا زينة ولا... وشبيهة بها من تُصرّ على عدم إزالة الشعر غير المرغوب فيه، أو من ترفض إزالة بعض الروائح من أماكن معينة، ولو تعلم أمثال تلك النّسوة مقدار ما تمثله هذه الأفعال من معاول هدم، لما اجترأت على اقترافها، ولاستجابتْ لأوامر الشّريعة بالنظافة والتّطهّر... تروي السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن

امرأة من الأنصار، سألت النّبيّ ﷺ عن غُسْلها من المحيض، فعلّمها النّبيّ كيفَ تَغتسل... ثم قال لها: «**خُذِي فرصةً مُمَسَّكةً** «أي قطعة من القطن بها أثر الطيب» **فتطهري بها**».

قالت: كيف أتطهرُ بها؟ قال: «**تطهري بها**».

قالت: كيف يا رسول الله أتطهرُ بها؟

فقال لها: «**سبحان الله، تطهري بها!!**».

قالت السيدة عائشة: «فاجتذبتُها من يدها، فقلتُ: ضعيها في مكان كذا وكذا، وتتبعي بها أثر الدّم، وصرحت لها بالمكان الذي تضعها فيه»[1]. فهذا توجيه تعمل وفقاً له كل امرأة صالحة، فتتطهر من آثار الرّوائح غير الطّيّبة بوسائل مختلفة حسب مقتضيات التّطور والحداثة؛ لِما في ذلك من أثر جميل في نفس الزّوج.

ولنا وقفة أخرى تفصيلية مع هذه المسألة عند الحديث عن وسائل الدخول إلى قلب الرّجل في بحث «ليلة الزّفاف ليلة العمر».

ولكن ينبغي أن نوضّح قبل ذلك أن تأكيدنا على أهمية التّطهر والنّظافة لا يعني مطلقاً دعوة إلى الإسراف والإفراط في هذا الأمر، ولذا فيجبُ أن تؤخذ هذه الدعوة في إطار من الوسطية والاعتدال... وذلك ينقلنا إلى النّقطة التّالية.

ومن أدبها أن لا تفرط في الزّينة ومجاراة خطوط الموضة:

فهي واثقة بنفسها، وليس لديها شعور بالنّقص يدفعها إلى خوض مجالات غريبة تحاول بها تعويض هذا النقص، في حين أنّ المرأة التي تشك في نفسها، وينتابُها شعورٌ بالنّقص تجاه الأخريات من أترابها، تحاول أن تؤكّد شخصيتَها في دائرة الأنوثة بالاستزادة من الزينة وباتّباع أحدث الموضات، معتقدةً أن في هذا تعويضاً للشعور بالنّقص، وأنّها بذلك سيُمكّنها أن تفوز باهتمام الرّجل.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ولكن.. هيهات!.. فليس بالإسراف في الزينة والموضة تستطيعُ المرأة أن تفوز بالرجل، وإنّما يمكنها ذلك بأشياء أخرى كثيرة طالما أشرنا إليها في كتابنا هذا.

ومن أدبها أن تكون أمينةً عليه مخلصةً له:

والزّوجة الكريمة مخلصة لزوجها حتى لو كانتْ لا تُحبّه، فطالما ارتبطتْ به بعلاقة الزوجيّة التي تعد من أرقى العلاقات الإنسانيّة فإنّها تحترم تلك العلاقة أبداً. أما الأخرى الّتي يحتقرها الجميع، فهي التي تجيد اللّعبَ على زوجها في الليل، ثم على عشيقها في النّهار. والغريب في أمرها أن تغار على من تخون وأيضاً على من تعشق، فهي مثلاً تثور عندما يذكر أحدهما اسم امرأةٍ أخرى على لسانه أمامها مع أنها تُعاشر كلًّا منهما على التّوالي.

ولن تدوم علاقة قامت على الخيانة والخداع، فكما أنّ للظلم نهاية، فإنّ للخداع أيضاً نهاية، لكنها غالباً ما تكون مؤلمة، والخاسرة طبعاً هي المرأة.

ولأنّ المرأة الصّالحة تعرف هذه الحقائق، أو تحسها على الأقل بحدسها البصير، ولأنّها امرأة سويّة مهذبة يسري في روحها وجسدها حب الأخلاق والفضيلة قبل كل حب، لا تسمح لنفسها بالتّوجه نحو شخص آخر غير زوجها. وفي أسوأ الظّروف عندما يلفت نظرها رجل آخر فإنّ الأمر يبدأ وينتهي عند هذا الحدّ.. حدّ لفت النّظر، دُونَ أن تسمح لنفسها في إقامة علاقة من أيّ نوع مع ذلك الرّجل.

ولا شك أنّ تلك المرأة الأمينة المخلصة تستحق الثّناء الجميل الذي أثنى به عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[1].

فالحافظات للغيب ذلك الوصف الجميل للمرأة الصّالحة يقصد به أن من سماتها الجوهرية حفظ غيبة الزّوج بالإخلاص له والوفاء للميثاق الغليظ الذي بينهما، فلا تخونه في نفسها ولا في ماله.

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

ولم يكتف الإسلام بمدح تلك الصفة في المرأة في القرآن الكريم فحسب، بل اعتبرها الرسول ﷺ إحدى صفات ثلاثة تتميز بها: «**خير النّساء**».

نعم «خير النّساء» فقال في الحديث الصّحيح: «**خيرُ النّساء مَنْ إذا نظرتَ إليها سرَّتك، وإذا أمرتَها أطاعتك، وإذا غبتَ عنها حفظتْكَ في نفسِها ومالِكَ**». وفي رواية أخرى لهذا الحديث اعتبر الرسول ﷺ مثل هذه المرأة خير ما يُكنز الرجل، فقال مخاطباً عمر بن الخطاب: «**ألا أخبرك بخير ما يُكنز، المرأةُ الصّالحة: إذا نظرَ إليها زوجُها سَرَّتْهُ، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته**»[1].

ومن أدبها أنْ تكون غير مسرفةٍ في الاختلاط مع الجيران:

ولا تُدْخِلَ أحداً دارَها إلّا بإذن زوجها، فكثرةُ الاختلاط بالجيران، والتداخل المستمر معهم من الأسباب التي تجلب كثيراً من المتاعب، ويتمخَّضُ عنها غالباً احتكاكات غير لطيفة.

ومن هنا فإنّ معظم الرجال ينظرون بعين التّقدير للمرأة التي تدرك تلك المسألة وتعمل وفقاً لها..

جاء في كتب الأدب: «أنّ رجلاً قال لخاطبٍ: ابغني امرأةً لا تؤنس جاراً، ولا توهن داراً، ولا تثقب ناراً».. فذلك الرجل الحكيم يريد امرأة لا تدخل على الجيران، ولا يدخل عليها الجيران بدون داعٍ، ولا تغري بينهم بالشّر.

وفي نحو هذا يقول الشّاعر:

من الأوانس مثل الشّمس لم يرَهَا في ساحة الدار لا بعل ولا جار

وقد بيّن الرّسولُ ﷺ أن من حقِّ الرّجل على زوجته ألّا تُدخل أحداً منزلَهُ إلا بإذنه، فقال:

«**ألاَ إنّ لكم على نسائكم حقّاً، ولنسائِكم عليكم حقّاً، فحقُّكم عليهنّ ألّا**

---

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عباس.

يُوطئنَ فرشَكُم من تكرهُونه، ولا يأذنَّ في بيوتِكُم مَن تكرهونَهُ»[١]. ومعنى: «**ألاّ يوطئن فُرُشَكُم من تكرهون**» قال ابن جرير: معناه: أن لا يمكّنّ أنفسهنّ أحداً سواكم. وردّ البعض على هذا التفسير بأنّه لا معنى حينئذ لاشتراط الكراهية؛ لأنّ الزّنا حرام على جميع الوجوه.

وذهب الخطابي إلى أنّ معناه: ألّا يأذنّ لأحدٍ من الرجال فيتحدّث إليهنّ، وكان الحديث من الرجال إلى النساء من عادات العرب لا يرون في ذلك عيباً ولا يعدُّونه ريبةً، فلمّا نزلت آية الحجاب وصارت النّساء مقصوراتٍ، نهَى عن محادثتهنّ والقُعُودِ إليهنّ.

ومن أدبها أن تعيش الحاضر فقط:

كثير من النساء يُلحِحْن في سؤال أزواجهن عن نزواته السابقة، وما هي أوصاف من تعلق قلبه بها.. والواحدة منهنّ عندما تسأل زوجها مثل تلك الأسئلة تُؤكد له أنّها لن تغضب ولن يؤثر ذلك فيها.

وإذا استجاب الرجل لهذا الإلحاح، فإنه يكون قد وقع في أكبر الأخطاء التي تؤثر تأثيراً مباشراً على علاقة المرأة به؛ لأنها مهما أقسمت له بأغلظ الأيمان أن صراحته لن تؤرقها، فهي تخدعه وتخدع نفسَها.. فأيّ اعتراف من الرّجل بعلاقاته السّابقة أو بشعوره تجاه بعض النّساء، يكون أشبه بفتيلة مشتعلة يضعها في حياته الزوجية من الممكن أن تشعلها ناراً في أي لحظةٍ؛ فالمرأة لا تنسى ومن أدلة ذلك امرأة «ليون تولستوي» طلبت منه معرفة تجاربه التي مرّ بها مع الجنس الآخر قبل أن يتزوّجها؛ فأجابها إلى ما طلبت، وكانت النّتيجة ضنكاً وجحيماً؛ حتى إنه علّق على ذلك في أواخر حياته قائلاً:

«كانت تلك الذكريات أشبه بفتيلة وضعتُها بنفسي في ثنايا حياتنا الزوجية؛ فقد اشتعلت غَيْرةُ زوجتي دون مبرّرٍ لهذه الغيرة، وبدرجة أحالت حياتَنَا الحلوة الصّافية إلى جحيم متأجّجٍ».

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

ومن ثم فإن الزّوجة الكريمة لا تلح في التّعرّف على ماضي زوجها العاطفي، لأنّها تعلم أنّ الجهل يكون أحياناً مفيداً؛ أو لأنها تعمل بمنطق: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[١].

ولكن في كثير من الأوقات تحرص المرأة الصّالحة على التّعرّف عمّا يرغب فيه الرّجل أو يجذبه في الأنثى. ولذا فهي تسأله عن ذلك سؤالاً مجرّداً عن الشّخصيات، أي تسأله عن الأفعال والصّفات لا عن فاعليها أو حامليها.

ومن أدبها: أن لا تعتبر المال أصدق دليل على الحبّ:

من النّساء من يعتقدْنَ أنّ إنفاقَ الرّجل المالَ عليهنّ أصدقُ دليل على الحبّ، فكلّما أنفق الرّجل أكثر اعتقدْنَ أنه يحبهن أكثر، وكلّما قصّر في الإنفاق أو عجز عنه، اعتقدنَ أنّه قد كفّ عن حُبّهنّ.

وهذا الاعتقاد ليس له مكان في عقل المرأة الصّالحة، لأنّها تدرك تماماً أنّ مظاهر الحبّ متعدّدة، منها الكلمة الطّيبة، والسّلوك المعبّر، والعاطفة الجيّاشة، وقد يكون المال إحدى الوسائل التي يلجأ إليها بعضُ الرّجال للتّعبير عن حبهنّ.. أقول إحدى الوسائل، وليس كل شيء.. فهو ليس المقياس الأوحد الذي تقيس به المرأة الصّالحة الكريمة حبّ الرّجل، وفي أحيان كثيرة لا يُعتبر مؤشّراً - على الإطلاق - على أن الرّجلَ يُحبّ، بل قد يكون إحدى وسائل الإغراء والغواية.

ومن أدبها: أنْ لا تكون مسرفةً في طعامها وشرابها:

والزّوجة الكريمة امرأة معتدلة في كل شأنها، لا تُفْرط ولا تفرّط. فهذا دأبُها ودَيْدَنُها دائماً وأبداً... ومن مظاهر ذلك أنّها لا تسرف في طعامها وشرابها استجابةً لمقتضيات العقل وتنفيذاً لأوامر الله تعالى عندما قال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

ثم إن الرّجال غالباً لا ينظرون بعين الاحترام للمرأة الأكولة المسرفة في شرابها؛ فهم يعدّون ذلك من جوانب النقص، والبعض منهم يعتبرها نقيصة لا يشفع لها حتى جمال المرأة. من هؤلاء معبد بن خالد الجدلي قال: «خطبتُ امرأةً من بني أسد في زمن زياد - وكان النّساء يجلسن لخطابهنّ - قال: فجئتُ لأنظرَ إليها، وكان بيني وبينها رواق، فدعت بحفنة عظيمة من الثّريد، مكلّلة باللّحم، فأتت على آخرها، وألقت العظام نقية، ثم دعت بشنٍّ عظيم مملوءة لبناً، فشربته حتى أكفأته على وجهه. ثم قالت: يا جارية، ارفعي السّحف؛ فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا شابة جميلة، فقالت: يا عبد اللّه، أنا أسدة من بني أسد، وعلى جلد أسد، وهذا طعامي وشرابي؛ فعلاَمَ تراني؟ فإن أحببتَ أن تتقدم فتقدمْ، وإن أحببتَ أن تتأخرَ فتأخّرْ!. فقلتُ: أستخير الله في أمري وأنظر!. قال: فخرجتُ ولم أعدْ!».

ومن أدبها: أن لا تكون مهملةً:

والزّوجة الكريمة امرأةٌ حريصة غير متهاونة أو مهملة؛ فعندما تفتح باباً لا تنسى أن تغلقَهُ، وإذا أخفتْ شيئاً لا تنسى موضعَهُ، وإذا اعتبرت بحادثٍ لا تنسى عبرتَهُ، ولو ائتمَنَها أحدٌ على سرٍّ لا تنسى أن تكتمه..

ومن أدبها: أن تقدّر الأمور بقدرها؛ فلا تقلبُ الميزةَ عيباً:

عندما تحكمُ الزّوجةُ الكريمةُ على الأمور؛ فإنّها تقدّر كلَّ شيءٍ بقدر، فتقييمها مثلاً لصفات الرّجل يظل ثابتاً سواء أحبَّتْهُ أمْ كرهتْهُ، لأنّها تملك الحدَّ الأدْنَى من الموضوعية التي تعصمها عن بخس النّاس أشياءَهم.

أمّا المرأة الأخرى التي تتلوّن أحكامها وفقاً لحالتها المزاجيّة، فلديها القدرة القادرة على تحويل الأشياء إلى نقيضها، فعندما تكره الرّجل أو لا تَسْتَسيغُهُ، فإنّها تقلب مميّزاتِهِ عيُوباً، ومحاسنَهُ مساوئاً، حتى تبرر لضميرها خداعه وخيانته، فتسمي الكرمَ تبذيراً، والمرح طيشاً، والقوّةَ استبداداً!.

ومن أدبها: أن لا تحمل في عقلها سجلاً أسود عن الماضي:

والزّوجةُ الكريمة ذاتُ قلب أبيض، لا تحمل في عقلها سجلاً أسود ضخماً تدوّن فيه كلَّ نقائص زوجها، صغيرةً وكبيرةً. وحتى إن كانتْ تسجّل في ذهنها تلك النّقائص فهي لا تتحدث بها ولا تستخدمها استخداماً سيئاً بمناسبة أو بغير مناسبة. وهي أيضاً تقدر تلك النقائص بقدرها، فلا تضخمها أو تهوّلها، وتضع بجوار تلك النّقائص مميزاتِ زوجها وسماتِ عبقريته. وإن كانت تلك المميزات من القوّة بمكان فهي تقضي على عيوبه ونقائصه في عقلها؛ لأنّها تعمل بمنطلق الآية: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].

لكنّ هناك نوعية من النّساء لا تدري أين مصلحتها، ولا تعرف مواطن الضّرر، فتعمل على إفساد حياتها الزوجية - من دون أن تدري - عندما تحدّث الرّجل في كل مناسبة عمّا فيه من كبائر النّقائص وصغائرها. وكان الأجدر بها ألّا تستخدم هذه النّقائص ذلك الاستخدام السّيّىء؛ لا لمصلحة زوجها فقط، وإنّما لمصلحتها هي أيضاً.

ومن أدبها: أن تتخذ موقفاً إيجابياً تجاه عيوبها وعيوب زوجها:

لا شك أنّ الزّواج يُعتبر بمثابة الضوء السّاطع الذي يسلط على الشخصية، فيكشف عن عيوبها ونقائصها في وضح النّهار!. والزّوجةُ الكريمةُ هي التي تتخذ موقفاً إيجابياً من تلك العيوب، سواء كانت عيوب الرّجل أم عيوبها هي.

أمّا موقفها من عيوب الرّجل فينبغي عليها ألّا تحاول دائماً أن تنتقد تصرفاتهِ، كأنّها مكلّفةٌ بذلك؛ فالمرأة التي لا هَمَّ لها سوى البحث عن نقائص زوجها، والاجتهاد في إظهار معايبه أمام النّاس، والتّحدث عن مظاهر ضعفه في مناسبةٍ وغير مناسبة، إنّما هي زوجة حمقاء تهدمُ عشَّها بيدها.

والموقف الحكيم الذي عليها أن تقفه يتمثل في اختيارها للوقت المناسب الذي تستعرض فيه مع زوجها عيوبه من وجهة نظرها، وتتخيّر الأسلوب الحسن

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

والكلمات الرقيقة، حتى لا تجرح مشاعره، موضحةً له أن هدفها من ذلك هو أن تراه في أحسن صورة، وأنّها تفعل ذلك لاهتمامها به وحرصها عليه، ولو لم يكن مهمًّا وعزيزاً عليها لما ألقت إليه بالاً.

أما عيوبها هي، فعليها أن تنصت باهتمام إلى استماع وجهة نظر زوجها، وتتفهم ما يقوله لها، صادقة النّيّة في تغيير ما يراه هو واجب التّغيير.

ومن أدبها: أن تتنزّه عن الشّجار والجدال:

الشكوى... التّعيير... التّحقير... الزّراية... الاستخفاف... ألوانٌ منوعةٌ من التّعذيب النّفسي التي تتخصص الزوجة في إحداها أو فيها جميعاً!.

وأسوأ ما في«النّقار» أنّه قد يبدأ عفواً، ولكنّه سرعان ما يتحول إلى عادة راسخة.

فالزّوجة التي تبدأ وهي في سنّ العشرين تتساءل متى يتسنّى لزوجها أن يشيد لنفسه بيتاً كما فعل صديقه «فلان» تستحيل في سنّ الأربعين إلى زوجةٍ مصابةٍ بداء «النّقارِ المزمن»!.

ومن أسوأ مظاهر «النّقار» أن تعيّر المرأة زوجها بغيره من الناس.. لماذا لا تكسب كما يكسب فلان.. لقد اشترى أخي لزوجته كيتَ وكيتَ.. فهو يحذق فنَّ كسب المال.. لو أنّني تزوجتُ من «فلانٍ» لما كان هذا حالي. أما الزّوجة الكريمة فهي تتنزّه عن تلك الممارسات «غير المجدية»؛ لأنها تعلم بحسّها المرهف أنْ لا شيء يقوّض ثقة الرّجل بنفسه، ويُحطم نفسيتَهُ، ويقتل آماله، ويزعزع أركان الحياة الزوجية - كهذه العبارات المسمومة!. وقد نصح أحد الرجال زوجتَه فقال:

خُذِي العفوَ منّي تستديمي مودّتي ... ولا تنطقي في سورتي حينَ أغضب
ولا تنقريني نقركِ الدّفَ مرّةً ... فإنّك لا تدرينَ كيفَ المغيّب
ولا تكثري الشّكوى فتذهب بالقوى ... ويأْبَاكِ قلبي والقلوب تقلّب
فإنّي رأيتُ الحبَّ في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحبّ يذهب

ومن أدبها: أن لا تدفع زوجها إلى التّهور:

عندما يحدث تصادمٌ ما مع الأهل أو الأصدقاء أو الجيران، في غياب الرّجل.. فإنّ ردود أفعال النّساء تتباين من واحدةٍ إلى أخرى عند حضوره.

فالحمقاء تجد لذةً خبيثةً في تجسيم النّزاع، وتحويره وتهويله! زاعمةً أنّها قد أُهينت في صميم كرامتها، وأنها ليس لها رجل يعرف كيفَ يُدافع عنها، ويلزم خصومها المعتدين حدَّ الاحترام والأدب!.

وبهذه الطّريقة الطّائشة في خبثها، الحمقاء في مكرها، تمضي تلك المرأة في إثارة أعصاب زوجها، وإيغار صدره على النّاس، حتى إذا امتلأت نفسُه غيظاً وحِنْقاً، وثار وتهوّر في ثورته إلى حدِّ الخطر، روَّعت المرأة وولولت وانتحبتْ، وراحتْ تؤكّد بأغلظ الأيمان أنها لم تقصد إلى شيء من هذا، بل لم تتوقعْ حدوثَ ما حدث.

وهكذا تجمع تلك الحمقاء أكوام الحطب، وتشعل فيها النّار، ثم تعجز بعد ذلك عن إخمادها؛ فيمتلكها الذّعر عندما ترى النّار تحرق رِجْلَهَا، وبيتَها، وحياتَها.

ولذلك فقد قال سليمان بن داود في حكمتهِ: «المرأة العاقلة تبني بيتَها، والسّفيهة تهدمُهُ».

نعم!؟ إن المرأة العاقلة تبني بيتها لأنّها تعمل على أن يضبط زوجها نفسه، وتحرص على هدوء أعصابه، ولا تُوغر صدره؛ فلا تحرّف الأحداث، ولا تهوّل ما حدث من سوء فهم أثناء غيابه؛ لأنها تعلم أنّ تهاويل المرأة أفعل في النّفس والقلب لدى الرّجل من السّموم، وأفعل في نفسه من وقع الإهانة المباشرة، ممّا قد يسوقه إلى ارتكاب فعلٍ يترتب عليه أسوأ النّتائج.

ومن أدبها: أنْ لا تضعَ نفسَها مواضعَ التُّهم:

من العادات السّيّئة التي يتحلّى بها كثيرٌ من النّاس سرعة الظن السّيّىء بالآخرين لأتفه سبب أو لأقل اشتباه.. وإن كان المرء لا يملك أن يغيّر من

عادات هؤلاء شيئاً، فإنه يمكنه ألّا يعطيهم أيَّ فرصةٍ أو أدْنَى مبرّرٍ لكي يظنُّوا به ظنَّ السُّوْء؛ فيتجنب مواضع التّهم، ويبعد عن مواطن الاشتباه. وهذا أوجب ما يجب على المرأة الصّالحة؛ فهي لا شك أنّها عفيفةٌ طاهرةٌ قانتةٌ حافظةٌ للغيب بما حفظ الله، ولكن مع ذلك قد تفعل فعلاً أو يصدر عنها قول - وهي حسنة النّيّة - فيظنّ بها الظّانُّون ظناً هي أبعد ما تكون عنه، ولذا فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[1].

وإذا لم تسلك المرأة هذا السلوك، فإنّها رغم طهرها وعفافها ستجرّ على نفسها كثيراً من المصاعب هي في غنى عنها.. يُوضح ذلك ما يرويه ابن عبد ربّه في العقد عن هند بنت عُتبة فيقول: «كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتيان قريش، وكان قد تزوّج هند بنت عُتبة، وكان له بيت للضّيافة يغشاه النّاسُ فيه بلا إذن، فقَالَ يوماً في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى ذلك البيت، فلمّا وجد المرأة نائمةٌ ولّى عنها، فاستقبله الفاكهُ بنُ المغيرة، فدخل على هند وأنْبهها، وقال: منْ هذا الخارجُ من عندَكِ؟!.

قالتْ: والله ما انتبهتُ حتّى أنبهتني، وما رأيتُ أحداً قط. قال: الحقي بأبيك! وخاض النّاس في أمرها. فقال لها أبوها: يا بنيّة، العارَ وإن كان كذباً، أبْيّني شأنَكِ، فإنْ كان الرجل صادقاً دسستُ عليه من يقتلُهُ فيقطعُ عنكِ العارَ، وإن كان كاذباً حاكمتُهُ إلى بعض كُهّان اليمن. قالتْ: والله يا أبتِ إنّه لكاذب.

فخرج عُتبة، فقال: إنّك رميتَ ابنتي بشيءٍ عظيم، فإمّا أن تبيّن ما قلتَ وإلّا فحاكمني إلى بعض كُهّان اليمن؟ قال: ذلك لك.

فخرج الفاكهُ في جماعة من رجال قريش، ونسوة من بني مخزوم، وخرج عُتبةُ في رجال ونسوة من بني عبد مناف، فلما شارفوا بلاد الكاهن، تغيّر وجه هند، وكُسِفَ بالها، فقال لها أبوها: أيْ بُنيّة، ألاَ كان هذا قبل أن يُشتهر في النّاس خروجُنَا؟!.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

قالتْ: يا أبتِ، والله ما ذلك لمكروهٍ قِبَلي، ولكنّكم تأتون بشراً يُخطىء ويُصيب، ولعلّه أن يسمني بسمةٍ تبقى على ألسنةِ العرب.

فقال لها أبوها: صدقتِ، ولكنّي سأخبره لك، فصفر بفرسه، فلما أدلى عمدَ إلى حبة بُرّ فأدخلها في إحليله، ثم أوكى عليها وسار، فلمّا نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم.

فقال له عُتبة: إنّا أتيناك في أمرٍ، وقد خبأنا لكَ خبيئةً، فما هي؟. قال: برّة في كمرةٍ. قال: أريد أبينَ من هذا. قال: حبّةُ بُرّ في إحليل مهر. قال: صدقتَ، فانظرْ في أمر هؤلاء النّسوة، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهنّ، ويقول: قُومي لشأنك! حتّى إذا بلغ هند مسح يده على رأسها وقال: قُومي غير رفحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً يسمى «معاوية»! فلمّا خرجت أخذ الفاكهُ بيدها، فنترتْ يدها من يده، وقالت: إليكَ عنّي! والله لأحرصنّ أن يكون ذلك الولد من غيرك! فتزوجها أبو سفيان. فولدتْ له معاوية.

كما يرى القارىء - أو القارئة - فإنّ هند بنتَ عُتْبةَ رغم شرفها وعفّتها إلّا أنّها عرّضتْ نفسها لتهمةٍ شنيعةٍ نتيجةً لفعل فعلة دون قصد وبحسن نيّة؛ حيث ظلت نائمة في مكان يغشاه النّاس بلا إذن، فدخل عليها رجل فوجدها نائمة فولّى عنها، ومع ذلك فإنّ زوجها جاء في لحظة خروج ذاك الرّجل، فظنَّ فيها ظنّ السّوء. وبالطبع فإنّ زوجها قد تسرّع وأخطأ خطأً كبيراً عندما ظنّ بها ذلك؛ لأنّه لو كان أعمل عقله قليلاً لوجد أن المكان الذي وجدَ بهِ الرجلَ ليس مكاناً خاصّاً له حرمة، وإنّما هو مكان للضّيافة، إذنْ فلا محل للشبهة والاشتباه. ولكنْ لو كانت هند - من البدء - اجتنبتْ ذلك الموطن لكفتْ نفسَها وأهلها مصاعبَ كثيرة.

وعلى ذلك، فإن المرأة الصّالحة تحرص حرصاً كبيراً على اجتناب مواضع التّهم ومواطن الشّبهات؛ حتى تحمي عرضَها وسمعتَها من أيّ ظنٍّ خبيث من الممكن أن يسرع إلى عقول الحمقَى والمتربّصين بالنّاس السوء.. عليهم دائرة السوء!.

ومن أدبها: أن لا تُفشي سرًّا لزوجها وأهلها:

يفضل دائماً الرّجل الذكيّ المرأة الكتُومة التي يصعبُ عليها، بل يستحيل أن تُفْشِي سرًّا أو تنقل كلاماً سمعتْهُ من أحد المتحدّثين.

ولقد بلغ من كره بعض الرجال للمرأة المتساهلة الطّائشة التي تتحدثُ بأخبار النّاس وتُفْشِي أسرارهم، أنْ هَجَا أحدُهم أُمَّهُ لأنّها تسلك هذا المسلك.. يقول الحُطيئة - لأمّهِ - ولم يسلم من لسانها أحد:

تنحّي فاجلسي منّي بعيداً أراحَ الله منكِ العَالَمِينَا
أغربالاً إذا استودعت سرًّا وكانوناً على المتحدثينا؟
حياتك - ما علمتُ - حياة سُوءٍ وموتكِ قد يسرُّ الصّالحينَا

ومن أخطر الأسرار التي تنشرها بعض الحمقاوات من النساء أسرار اللّقاء الجنسي... دون أن تدري إحداهُنّ عاقبةَ ذلك، ولو علمتْ ما فعلتْ.

وقد نهى الرسولُ ﷺ نهياً جازماً عن مثل هذا العمل، فروى أحمد بن حنبل عن أسماء بنت يزيد: أنّها كانت عند الرسول ﷺ والرجال والنّساء قعُودٌ، فقال: «**لعلّ رجلاً يقول ما يفعل بأهلِهِ! ولعلّ امرأةً تُخبر بما فعلتْ مع زوجِها!**».

فأرمَّ القومُ - سكتوا - فقلت: أيْ والله يا رسول الله، إنّهنّ ليفعلنَ، وإنّهم ليفعلونه!. فقال: «**فلا تفعلُوا، إنّما ذلك الشّيطان لقي شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون**».

وقد فسّر بعضُ المفسّرين صفةَ «الحافظات للغيب بما حفظَ الله» الواردة في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[1].

فسَّروها على أن المقصود منها: حافظاتٌ لما يجري بينهنّ وبينَ أزواجهنّ مما يجب كتمه ويتحتم ستره من بواطن وأسرار.

ومن أدبها: أن تتفهّم زوجَها وتحاول التّكيّف معه:

وهي تتمتعُ بتصور واقعي منذ بدء حياتها الزّوجية، فلا تتوقع أن يتحقق

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

التّوافق والاتحاد بينها وبينَ الرجل فورَ ارتباطهما دفعة واحدةً، بل تضع في ذهنها أن التّوافق العاطفي والعقلي يستلزم اجتياز مرحلة - طالت أو قصرتْ - من «المحاولة والخطأ». وليست العبرة هنا بأن تتحاشى كل تجربة، أو تنأى بنفسها عن كل ما قد يعرضها للخطأ، بل العبرة بخوض التّجارب والاستفادة منها وعدم تكرار الأخطاء ذاتها.

وقبل هذا فإنها تملك رغبةً صادقة في التّفاهم، وتعمل باستمرار على تحقيق التّوافق والانسجام مع شريك العمر شيئاً فشيئاً. مع الأخذ بأسباب الصّبر والأناة والمثابرة في سبيل تجنّب دواعي المشاحنة، وتلافي أسباب الخلاف، وخلق الجو الملائم لنموّ روح التّعاطف والحب.

ومن المستحيل أن يتم التّوافق دون أن يتنازل كل من المرأة والرّجل عن بعض أنماط سلوكه وعاداته القديمة.

والمرأةُ الصّالحةُ عليها العبء الأكبر في هذا المجال؛ حتّى يمكنها أن تتلاقَى مع شريك عمرها ويتلاقَى هو معها. وأن تُحسن تدبير شؤون المنزل.

والمرأةُ الصّالحة تُحسن تدبير شؤون المنزل، وتضع ما لديها من مال في خير موضع وفي أفضل سبيل.

ولا يعني حسن التّدبير معرفة استخدام الأموال فحسب، بل يشمل كل ما يتعلق بأمور المنزل؛ فالاعتناء بالملابس والأثاث وخلافه يجعل مدّة استعمالها تطول ولا تبلى سريعاً. وهذا من شأنه أن يُخفّف من أعباء الزوج؛ مما يؤثر أبلغ الأثر في سعادة الأسرة واستقرارها.

ومن أدبها: أن لا تُضيّع حقَّ زوجها بحُجّةِ أداءِ حق الله:

فهناك من النّساء من تظنّ أنّ الإكثار في عبادة الله تعالى ولو على حساب زوجها أو أهلها، قد يزيدها قرباً من الله سبحانه.. وهذا ظنّ يجدر بكل امرأة متفهمة أن تتنزّه عنه؛ لأنّ الّذي أمرها بعبادة الله هو ذاته الذي أمرها بأداء حقّ الزّوج.. وذلك هو الله سبحانه. وفي هذا المعنى يقول الأصمعي: «رأيت في البادية امرأةً عليها قميصٌ أحمر، وهي مختضبة وبيدها سُبْحةٌ.

فقلتُ: ما أبعد هذا من هذا!؟. فقالت:

ولله منّي جانب لا أضيعه ولله مني والبطالة جانب

فعلمت أنّها امرأة صالحة لها زوج تتزيّن له».

فهذه الرّواية التي يذكرها الأصمعي تضرب لنا مثلاً رائعاً لامرأةٍ صالحةٍ تملك القدرة على الموازنة بين حقوق الله وحقوق الزّوج.

ولكن إذا كان التّراث يقدّم لنا هذه الصّورة المشرقة لزوجة من الزوجات، فإنّه يقدّم أيضاً صورةً لزوجة لا تستطيع أن تميّز تمييزاً دقيقاً بين الأمور بالشكل الذي تستطيعه المرأة السابقة؛ ولذا فإنّ الرّسولَ ﷺ يصحّحُ لها الرّؤيةَ، ويُوضّح لها السّبيل القويم.. وذلك في الحديث الذي يرويه لنا أبو سعيد، فيقول: جاءتِ امرأة إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقالتْ:

زوجي صفوان بن المعطل يضرِبني إذا صليتُ، ويُفطّرني إذا صمتُ، ولا يصلي الفجر حتى تَطْلُعَ الشّمس!؟. قال: وصفوان عنده؛ فسأله عمّا قالت. قال: يا رسول الله، أمّا قولها: يضربني إذا صليتُ - فإنّها تقرأ بسورتين، وقد نهيتُها. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**لو كانت سورةً واحدةً، لكفتِ النّاسَ**». قال: وأمّا قولها: يُفطّرني إذا صمتُ - فإنّها تنطلق تصوم، وأنا رجلٌ شاب؛ فلا أصبر. فقال رسول الله ﷺ: «**لا تصومُ امرأةٌ إلّا بإذنِ زوجها**». أمّا قولها: إنّي لا أصلي حتّى تطلع الشّمس! فإنّا أهل بيتٍ قد عرفتْ عنّا ذاك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشّمس. قال ﷺ: «**فإذا استيقظتَ يا صفوانُ فصلِّ!**»[1].

ومن أدبها: أنْ تُشارك زوجَها حلوَ الحياة ومرّها:

المرأة المخلصة هي التي لا تتخلى عن زوجها في الأزمات، فكما تعيش معه أيام الرّخاء تعيش معه أيضاً أيّام الشّدائد دون تذمر أو سخط. فليست الحياةُ تسيرُ على وتيرةٍ واحدة دائماً.. وتلك سُنّة الله في عباده.

ومن الطّرائف التي تُروى في هذا الصّدد، ما يذكره الأصمعي عندما قال:

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه، وهو حديث صحيح.

أصابت الأعراب مجاعة، فمررت برجلٍ منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق، وهو يقول:

يـا رب إنّـي قـاعـدٌ كـمـا تـرَى وزوجـتـي قـاعـدة كـمـا تـرى
والـبـطـنُ مـنّـي جـائـعٌ كـمـا تـرَى فـمـا تـرَى يـا ربـنـا فـيـمـا تـرَى

ومن أدبها: أنْ توافق رغبات زوجها ولا تخالفه إلى ما يكره:

لكلّ رجلٍ أشياءٌ يُحبها، وأخرى يكرهها ولا يستسيغها.. والمرأة الصّالحة هي التي تتوافق مع زوجها في عاداته غير السّيّئة، وتحرص على تحقيق رغباته المشروعة، ثمّ تتجنب الأمور التي يكرهها.

ولعلّ هذه الصفة هي أفعل الصّفات في نفس الرّجل وعقله من أيّ صفة أخرى؛ فالجمال يزول مع الأيام، والمالُ - إن كانت غنيّةً - عُرضةٌ للزوال في أي لحظةٍ، وهكذا سائر الصّفات.. أمّا موافقة روح المرأة لروح الرّجل، وتلاقي رغباتها مع رغباته، وانسجام عاداتها مع عاداته، فهذا هو ما يبقَى للمرأة، وهذا هو ما يبقَى للرّجل!.

ويُؤكّد هذا المعنى سليمانُ الحكيم، فيقول: «الجمال كاذب، وَالحُسْنُ مُخلِفٌ، وإنّما تستحق المدح المرأةُ الموافقة».

ويرى صعصعةُ بنُ صَوْحان - أحد كبار الخبراء والمشاهير في معرفة أنساب العرب - أن صفة الصّفات في المرأةُ الصّالحةُ هي موافقتها للرجل وانسجامها معه.. فقد قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعةَ: «أيُّ النّساءِ أشهىٰ إليكَ؟ قال: المواتيةُ لك فيما تهوَى. قال: فأيُّهنّ أبغض إليكَ؟ قال: أبعدهن مما ترضى. قال: هذا النقد العاجل! فقال صعصعة: بالميزان العادل!».

ولكن هناك من الرجال من اعتبر تلك الصّفة مجرد صفة لا بدّ من توافرها مع عدّة صفات أخرى، فهو إن لم يكن يعتبرها صفةَ الصّفات إلّا أنّه يعتبرها صفةً من الصّفات الضّرورية المتعادلة في الأهمية.. فقد كتب الحجاج إلى ابن القرية، فيما يرويه ابن عبد ربّه في العقد الفريد: «أن اخطبْ على عبد الملك بن

الحجاج امرأةً جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مواتية لبعلها.

فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظم ثدييها.

فكتب إليه: لا يكمل حُسْنُ المرأة حتى يعظم ثديَاهَا؛ فتدفىء الضجيع، وتروي الرضيع!».

ولا شك أنّ الرّجل الذي يقع في امرأة من هذا القبيل، ينال نصف الدنيا إن لم يكن معظمها.

ومن هؤلاء المحظوظين شُريح القاضي الشّهير، فقد قابل الشّعبي يوماً، فسأله الشعبي عن حاله في بيته، فقال: «من عشرين عاماً لم أرَ ما يُغضبني من أهلي. قال له: وكيف ذلك؟ قال شُريح: من أوّل ليلةٍ دخلتُ على امرأتي، رأيتُ فيها حسناً فاتناً، وجمالاً نادراً... قلت في نفسي: فلأتطهر وأصلي ركعتين شكراً لله.

فلما سلمتُ وجدتُ زوجتي تصلّي بصلاتي، وتسلّم بسلامي. فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء، قمت إليها فمددتُ يدي نحوها، فقالت: على رَسْلِكَ يا أبا أميّةَ، كما أنت. ثم قالتْ: الحمدُ لله أحمدُه وأستعينُهُ، وأصلي على محمّدٍ وآلِهِ، إنّي امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيّنْ لي ما تُحب فآتيه، وما تكره فأتركه.

وقالت: إنّه كان لك في قومك مَنْ تتزوجه من نسائكم وفي قومي من الرجال مَنْ هو كفءٌ لي، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكتَ فاصنعْ ما أمركَ الله به: إمساك بمعروف أو تسريحٌ بإحسان.. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكَ.

قال شريح: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخِطبة في ذلك الموضع!. فقلت: أحمدُ الله وأستعينُهُ، وأصلي على النّبيّ وآله وسلّم، وبعدُ: فإنّكِ قلتِ كلاماً إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظُّكِ، وإنْ تدعيهِ يكن حجةً عليكِ.. أحب كذا وكذا.. وأكره كذا وكذا.. وما رأيتِ من حسنةٍ فانشريها وما رأيتِ من سيئةٍ

فاستريها!. فقالتْ: كيفَ محبتُك لزيارة أهلي؟ قلتُ: ما أحب أن يملُّني أصهاري. فقالتْ: فمَنْ تُحب من جيرانك أن يدخلَ دارَكَ، فآذنُ له؟ ومن تكره، فأكره؟. قلتُ: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

قال شُريح: فبتُّ معها بأنعم ليلةٍ، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما أُحِبُّ. فلمّا كان رأس الحول جئتُ من مجلس القضاء، فإذا بفلانة في البيت. قلتُ: مَنْ هي؟ قالتْ: ختنك.. [أي أم زوجتك]. فالتفتتْ إليّ وسألتني: كيفَ رأيتَ زوجتَكَ؟ قلتُ: خيرَ زوجةٍ!!. قالت: يا أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها إلّا في حالين: إذا ولدتْ غلاماً، أو حظيت عند زوجها. فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدلّلة.. فأدّبْ ما شئتَ أن تُؤدّب، وهذّبْ ما شئتَ أن تُهذب. قال شريح: فمكثتْ معي عشرين عاماً لم أعتبْ عليها في شيء إلّا مرة وكنتُ لها ظالماً».

وإذا كانت موافقة المرأة للرجل وتوافقها معه، أكثر العوامل فاعلية في استمرار انجذاب الرجل نحو المرأة ودوام العلاقة بينهما، فإنّ مخالفتها له تؤدّي إلى كراهيته المتزايدة لها، وتعمل على تصديع ما بينهما من رباطٍ وميثاقٍ.

ولنا في التّاريخ عبرة، حيث يقول الأصمعي: «كنتُ أختلفُ إلى أعرابي أقتبس منه الغريبَ، فكنتُ إذا استأذنتُ عليه يقول: يا أمامة، إيْذَنِ لي. فيقول: ادخل. فاستأذنت عليه مراراً، فلم أسمعه يذكر أمامة. فقلتُ له: يرحمك الله، ما أسمعك تذكر أُمامة منذُ حينٍ؟! قال: فوجم وجمةً.. ندمت على ما كان منّي.. ثم قال:

ظعنت أمامة بالطّلاق ... ونجوتُ من غلّ الوثاق
بانتْ فلم يألم لها قَلْـ ... ـبي ولم تدمعْ مآقي
ودواء ما لا تشتهيه ... النّفس تعجيل الفراق
والعيش ليس بطيب بَيْنَ ... اثنين في غير اتفاق
لو لم أُرح بفراقها ... لأرحت نفسي بالإباق

ومن أدبها: أن تجيد فنَّ الحديث مع زوجها:

المحادثة الودّية ضرورية لخَلْقِ علاقةٍ عاطفيةٍ مع من نُحبّ، وحتى تستمر المحادثة مُمتعةً لسنوات عديدة يحتاج الزوجان إلى مواضيع جديدة ليتحدثَا بشأنها. وفي ضوء هذا، فإنّ المرأة الصّالحة تُجيد فنَّ الحديث الوُدّي، ويكون لديها القدرة على إثارة موضوعات جديدة تتحدّث فيها مع الزّوج.. طبعاً ليست هذه الموضوعات مما قد يؤدي إلى النّكد، أو إلى تعميق هوة الخلاف.

ومن أدبها: أن تُعبّر عن مشاعرها وتُعطي لزوجها فرصة التّعبير عن مشاعره:

والمحادثة الودّية لا تعني فقط المشاركة بالمعلومات ووجهات النّظر، بل التعبير عن العواطف والمشاعر أيضاً، فإذا شاركت المرأة مثلاً في نشاط اجتماعي أو أيّ عمل آخر، فلا تُقْصِرْ حديثها عنه في مجرد ما جرى خلال اليوم، بل تتجاوز ذلك إلى الحديث عن مشاعرها تجاه ذلك وتجاه الذين شاركوها أو شاركتهم فيه.

كما أنّها تُعطي الفرصة كاملة لزوجها للتّعبير عن مشاعره وأحاسيسه وإن كان ممّن لا يفضلون ذلك؛ لأنه قد يظن خاطئاً أنّه ليس من الرجولة أن يبث الزّوج عواطفه ووجداناته أمام زوجته، فإنّها تحاول أن تغيّر من مشاعره بأساليب متعدّدة، لأنّ إفضاء الرّجل إلى المرأة بمشاعره من الأشياء التي تحقق التوافق والارتباط بينهما. ومن تلك الأساليب التي تتبعها المرأة في هذا الصّدد: أنْ تجيد الإصغاءَ لزوجها، فإذا اشتكى من يومِ عملٍ شاقٍّ مثلاً، تدعه يتابع بثَّ ما في نفسه من هموم وأوجاع دون أن تعرض عنه أو تقاطعه إلا بما يظهر اهتمامها بحديثه، كأن تسأله عمّا جعله يشعر بأن العمل صعب، وهل انزعج رئيسه لسببٍ بعينه؟.

وأهمّ من هذا أن تُشعره بأنها تهتمّ بهمومه، وتشعر بمشاعره، وتحسُّ بأوجاعه.

ثم تتجنب أن تنقده نقداً هدّاماً يزيد من شعوره بالإحباط، وتقدم وجهات

نظرها في موضوعيةٍ كاملةٍ، بما يوقفه على حقيقة الأمر، وبما يساعده على استئناف عمله بشكل أفضل.

وبعد ذلك لا تحاول المرأة أن تستغل إفضاءات زوجها إليها، عندما تتحدث معه، لأنّ مما يجعل معظم الرجال يضعُون حواجز نفسية بينهم وبين نسائهم فيحجمون عن الإفضاء إليهن بمشاعرهم وأفكارهم وأسرارهم أنهم يشعرون أن حديثهم قد يُستغل ضدّهم فيما بعدُ.

ومن أدبها: أنْ ترضَى بما يقسم الله لها من الرّزق:

والمرأة الصّالحة هي التي ترضى بما قسم الله تعالى لها، فلا تسخط على زوجها إن كان أدْنى منها في الجمال، ولا تتفاخر عليه.

كما أنها ترضى بإمكانات الزّوج سواء في الرخاء أو الشدة، فليست الأيام كلّها على حال واحدة.

ومما يلفت النظر في شأن النّساء المتصفات بالصّفة الأولى ما رواه الأصمعي، قال: «دخلتُ الباديةَ، فإذا أنا بامرأةٍ من أحسنِ النّاس وجهاً تحتَ رجلٍ من أقبح النّاس وجهاً!!. فقلتُ لها: يا هذه، أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟ فقالتْ: يا هذا، اسكتْ، فقد أسأتَ في قولك؛ لعلّه أحسن فيما بينَهُ وبينَ خالقه، فجعلني ثوابَهُ، أو لعلّني أسأت فيما بيني وبينَ خالِقي فجعله عقوبتي أفلا أرضى بما رضي الله لي. فأسكتتني».

ويروي ابن عبد ربّه في العقد الفريد: «أنّ عمران بن حطان نظر إلى امرأته، وكانت من أجمل النساء، وكان من أقبح الرّجال، فقال: «إني وإيّاك في الجنة إنْ شاء الله! قالت له: كيف ذاك؟ قال: إني أعطيت مثلك فشكرتُ، وأعطيت مثلي فصبرتِ!».

أمّا الصّفة الثانية، وهي الرضى بإمكانات الزّوج فقد اعتبرها أحد الحكماء صفةَ الصّفات في المرأة الصّالحة بالنسبة للرجل..

ومن أدبها: أنْ تكون غير مفرطة في الغيرة:

المرأة التي لا همّ لها سوى تعقب حركات زوجها، وتتبع أخباره، والتّشكّك في كل تصرفاته، والغيرة من معارفه وأصدقائه - لا ريب أنها حمقاء تنفصم بأفعالها تلك عُرى المحبّة والثّقة بينها وبينَ زوجها.

ومن ثَمَّ فإنّ الرجال الخبراء بفنّ العلاقات الزّوجية كثيراً ما يحذرون المرأة من الإفراط في الغيرة، فيقول أحدهم وهو أبو الأسود لابنته قبل زواجها: «إيّاك والغيرة، فإنّها مفتاح الطّلاق».

ويجدر بالمرأة لو فقدت أعصابها لأيّ سبب من الأسباب فغارت غيرة في غير موضعها، أن تعترف بخطئها، وتصلح ما أفسدتْهُ. والأهمّ من كل هذا أن لا تكرر خطأها مرة أخرى. ومن الطرائف التي يرويها المحدّثون ما جاء عن أنسٍ قال: أهدى بعض نساء النّبيّ ﷺ له قصعة فيها ثريد، وهو في بيت بعض نسائه، فضربت عائشة يد الخادم فانكسرت القصعة، فجعل النّبيّ يأخذ الثّريد ويردّه في القصعة ويقول: «**كلُوا؟ غارتْ أُمُّكُمْ**».

وفي رواية أخرى أخرجها أبو داود والنسائي أن عائشة ندمت على ذلك، وقالت: يا رسول الله، ما كفارة ما صنعتُ؟ قال: «**إناءٌ مثلُ إناءٍ، وطعامٌ مثلُ طعامٍ**».

ومن أدبها: أن لا تكون متكبّرةً:

فالرجال أشد ما يكرهون المرأة المتكبّرة، بل وينفرون منها.. وكم من النّساء قد قتلهنّ الكبرياء، فعشن ومتن بلا زواج يحقق لهن الاستقرار الأُسري نتيجة لغطرستهنّ وغرورهنّ.

أمّا المرأة المتواضعة المتبسطة في غير تساهل، فإن الرجال يتطلعُون إليها ويحبونها.

ومن أدبها: أنْ تتحدّث بنعمة ربّها، أو على الأقل لا تنكرها:

هناك من النّساء من أنعم الله تعالى عليهن برجال أغنياء كرماء، يعشن معهم

في رفاهية ورخاء، ولكن على رغم ذلك لا تنفك إحداهنّ تشكو من قلة ذات اليد ومن شظف الحياة، لا لشيء إلا لتبعد عينَ الحسد عنها، وتتمتع في الوقت نفسه بلذة اهتمام النّاس بها وإشفاقهم عليها!.

في حين أنّ المرأة الصّالحة لا ينتابُها مثلُ ذلك النّقص الجاهل، حيث تتحدث بنعمة ربّها عليها، وإن لم تتحدث فهي على الأقل لا تنكر تلك النّعمة.

ومن أدبها: أن لا تكون زوجة لعوباً:

شتانَ بينَ الزّوجة الكريمة والمرأة اللّعُوب، فالأولى في وادٍ، والثانية في وادٍ آخر. الأولى أجمل ما في الحياة، والثانية أخطر ما في الحياة، وكل صفة تتصف بها المرأة اللّعوب ليس للمرأة الصّالحة أدنى علاقة بها.. فهي على النّقيض.

فالمرأة اللعوب تملك خيالاً دائب التّوثب، وحواسّ دائمة التنبّه والتّيقّظ.. متأججة بحب المرح والحياة.. إنها تحب مهازِلَ الحُبّ وفَواجعَهُ، أكثر ممّا تُحبُّ الحُبَّ نفسَه.

ولا يكفيها التّعرف برجل واحد، بل إن الإخلاص لرجل واحد لا يروقها، والولاء لرجل واحد لا يرضي خيَالها ولا يُشعرها بلذّة الحياة!.

إنها تود أن تكون محبوبةً مرغوبةً من الجميع.. وهي تبذل أقصى جهدٍ لكي تكون كذلك بشرط أن لا تفقد سلطانها على نفسها، وسيطرتها على تصرّفاتها، وقدرتها على العَبثِ بقلب مَنْ يُحبُّها!.

إنّ الغاية عندها أن تمني عاشقها طويلاً.. ثم لا تعطيه إلّا بقدر.. وأن تُرهقه وتُقْلِقُه كثيراً ثم لا تُطمئنه إلّا لتعود فتتنكّر له.. وأن تُعذّبه طويلاً على أن لا تهبه نعمة السّعادة الكاملة أبداً.

والواقع أن لذّة الحبّ عندها لا تنبع من لذة التآلف والتّفاهم والمشاركة، بل من رغبة المحاورة والمداورة والشّماتة والتّعذيب.

وهي تنشد لذّة التّعذيب في الحبّ، وهذه اللّذّة تُغري بعضَ الرّجال بها،

وتضاعف رغبتهم فيها، وتدفع الأقوياء منهم إلى محاولة إخضاعها، والضّعفاء إلى الهوَسِ والجُنُون بها.

إنّها تتعمد إثارة الغيرة في قلب زوجها بشتى الفُنُون، فتُقبل عليه كالحمل، ثم تروغ منه كالثّعلب، تتصل به كالظل ثم تتبدد أمامه كالحلم! فتثور ثائرة الرجل ويزداد بها تعلّقاً حتى يغلبها أو تغلبه، على أنّه لو تمكن منها فهي لا يمكن أن تُحبه حبًّا خالصاً مطلقاً على رغم أنّها قد أُعجبت بقوّته وسلّمت لرجولته؛ فهي لا تستطيع أن تعيشَ بلا إثارةٍ، ولا يُمكنها أن تشعر بحلاوة الحياة إلا بتحدي الحياة ومحاولة إيقاع أكبر عدد من الرجال.

وبدهي أنّ الذين يميلُون إلى هذه النّوعية غير الصالحة من النّساء هم نوعية خاصّة من الرجال غير الحكماء، فالرّجل الحكيم القويّ لا يحبُّ المرأة اللّعوبَ، وإن وجد نفسه بدأت تتوق إليها فهو يستطيع كبح جماح تلك النّفس والسيطرة عليها، لأنه يعلم أن عواقب العلاقة بمثل تلك المرأة ضررها أكبر من نفعها في معظم الأحيان، فالذي يحب المرأة اللّعُوب لا يعرفُ أبداً طعم الرّاحة، وعليه أن يكون دائم التّنبّه، دائب التّحفّز والتّأهب للكفاح إذا أراد أن يظل متمكناً منها. أما إذا تهاون في التشبث بها أو تخاذل في فرض سلطانه عليها، فممّا لا ريب فيه أنّها ستخدعه وتخوّنه جزاءً له لأنّه لم يعرفْ كيف يقتلع أتابها!.

ومن أدبها: أن تتجنب التّوَافه من الأمور:

كثيرات أولئك النّساء اللاتي يولعن بالتوافه من الأمور، ولكن أيضاً يوجد كثير من النّساء اللواتي عودتهنّ ظروف الحياة تجنُّب تلك التوافه؛ فالتجربة تُشير إلى أنّ معظم الخلافات الكبيرة كانت في مبتدأ أمرها خلافات حول أشياء تافهة، ثم تصبح بمرور الزّمن عقدة نفسية لدى أحد الطّرفين، ثم تتطوّر إلى الطّلاق.

والمرأة الصّالحة هي التي تدرك ببصيرتها هذه الحقيقة فلا تثير جدلاً مع

زوجها حول أيّ أمر لا يُؤدّي وجوده أو عدمه إلى تأثير محوري في مجرى حياتِها، فلا تتنازع معَهُ على نوعية طعام، أو على تسمية الأولاد، أو على شراء ثوب.

ومن أدبها: أن لا تكون لوّامةً لزوجها:

والمرأة الصّالحة ليست امرأة لوّامة، فلا تعتاد لومَ زوجها إذا أخطأ في شيء أو قصّر أو فشل، بل هي تقدم له العون اللازم والكلمة الطّيّبة عندما يفوته الحظ أو يحالفه الفَشل.

يروي أحد الأطباء النّفسيين: «حدثني زوج مطلّق، فقال: هل تعرف ما الذي هدم سعادتنا الزّوجية وصار بنا إلى الافتراق؟

إنّه إصرار زوجتي على إلقاء اللّوم كل اللّوم على كاهلي عندما أفشل في عمل أو أصاب بخسارة. ولقد بلغ بها الأمرُ حدَّ لَوْمِي عندما أصبتُ بالرّشح، وكذلك اتهمتني بأنّي كنتُ السّبب في انتقال العدوى إليها».

هذا حال المرأة اللّوّامة، أمّا الأخرى التي يتطلع إليها كل رجل، فهي التي تجعل همَّها الأول إشعار زوجها بأنّه محبوبٌ، فإذا أخطأ التمستْ له عذراً، وإذا فشل أخذتْ بيده وطيّبتْ قلبه. وبهذه الوسيلة تستطيع المرأة الذكية مجابهة مُعْظَمَ العواطف التي لا تسلم منها أسعد العلاقات الزوجية وأكثرها انسجاماً وتفاهماً.

ومن أدبها: أن تكون وفيةً بعهدها:

يرى بعضُ الرّجال أنّ الوفاء والأمان ليسا من طبع المرأة عموماً، فمن عهدها - كما يقول المتنبّي - ألّا يدوم لها عهدٌ! ويذهب ذلك المذهب في النّساء شاعرٌ آخر، فيقول:

تمتّعْ بها ما ساعفتْك ولا تكُنْ جزُوعاً إذا بانتْ فسوف تبينُ
وصُنْها وإن كانتْ تعي لك، إنّها على مَدَدِ الأيام سوف تخونُ
وإنْ هي أعطتْكَ اللّيانَ فإنّها لآخر من طلابها ستلينُ

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها فليس لمخضوب البنان يمينُ
وإن أسبلتْ يومَ الفراقِ دُموعَها فليسَ لعمرِ الله ذاكَ يقينُ

ويؤكد الهيثم بن عدي تلك الصّفة في النّساء، فيحكي لنا واقعة تبرهن فيما يظن برهنة قاطعة على رأيه، فيقول: «غزا الغساني الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي، فلم يصبه في منزله، فأخذ ما وجد له، واستاق امرأته.. فلما أصابها أُعجبتْ به، فقالتْ له: انجُ، فوالله لكأنّي أنظر إليه يتبعك فاغراً فاه، كأنه بعير آكل مرار!

وبلغ الحارث، فأقبل يتبعه حتى لحقه فقتله، وأخذ ما كان معه، وأخذ امرأته، فقال لها؛ هل أصابك؟ قالت: نعم.. والله ما اشتملت النساء على مثله قط! فأمر بها، فأوقفت بين فرسين، ثم استنفرهما حتى تقطّعتْ.. ثم قال:

كلُّ أُنثى وإنْ بَدَا لك منها آيةُ الودّ حبّها خيشعور
إن من غره النّساء بودٍّ بعد هند لجاهلٌ مَغْرُور

كما ينحو هذا المنحى أبو عمرو بن العلاء وعبدة بن الطبيب، إذْ يقول الأول معجباً بحكمة الثاني:

أعلم النّاس بالنّساء عبدة بن الطّبيب، حيث يقول:

فإن تسألُوني بالنّساء فإنّني عليم بأدواء النساء طبيب
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلّ مالُهُ فليسَ له في وُدِّهُنّ نصيبُ
يُرِدْنَ ثراءَ المرءِ حيثُ علمنَهُ وشرخُ الشّبابِ عندَهُنّ عجيبُ

تلك وجهة نظر بعض الرّجال في النّساء، ولا شك أنّ هناك كثيرين يتابعونهم فيما يذهبون إليه في النّظرة إليهنّ.

ولكن إذا حاول المرء أن يكون أكثر موضوعية فسيجد أنّ تلك الوجهة من النّظر صحيحة من جهة، وخاطئة من جهةٍ أخرى، أمّا خطؤها فيكمن في التعميم، أي تعميم الحكم على جميع النساء، فبطبيعة الحال هناك كثيرات يُؤتمنَّ ويتمتعنّ بالوفاء والإخلاص، ولكن أيضاً توجد كثيرات لا يتميزنَ بهذه

الصّفات، ولذا ينطبق عليهن الأحكام السّالفة. فالأمر هنا أمر نسبة، فإذا كان حكم تلك الأحكام حكماً عاماً كلياً فهو خطأ، ولكنّها إذا أُخذت في نطاق جزئي بحيث تنطبقُ على نوع واحد من أنواع النّساء فهي أحكام صائبة.

ومهما يكن من أمر، فإن استطرادنا في تقييم أقوال هؤلاء الرجال، تأكيد على وجود كثير من النساء يتَّسمنَ بالوفاء والإخلاص بصرف النظر عن المتغيرات الاقتصادية أو الطبيعية التي تطرأ على حال الزّوج.

فصفة الوفاء صفة ممكنة وواقعية تتصف بها كلُّ امرأة صالحة في أعين معظم الرّجال.

ومن أدبها: أنْ تحترم رغبات زوجها وذوقه:

لا تتوطد علاقةٌ بين زوج وامرأته حتى يحترم كل منهما رغبات الآخر وأذواقه.

وإنّه لمن السخف أن نتصور أنّ اثنين يمكن أن يتشابها تمام الشبه في الأفكار والآراء، والرغبات، فذاك أمرٌ غير متيسّر وغير مستحب في آنٍ واحدٍ.

فالتّقارب في تلك الأمور شيء ضروري، أمّا التّشابه التام فلا.. وشتان بين التقارب والتّشابه التام. وإذا كان التّشابه التام صعباً وغير مرغوب فيه، فينبغي على المرأة - وأيضاً الرّجل - أن تحترم رغبات زوجها وأذواقه. وليس هذا شيئاً متعذّراً على أيّ امرأةٍ صالحة كريمة عاقلة.

ومن أدبها: أنْ لا تترك أولادَها للخدم أو للشّارع:

وهي تربي أولادها بنفسها، ولا تتركهم للخدم أو للشّارع أو ليدٍ غير يدها، لأنها تعلم أنّ هذا جزءٌ من مهمتها في بناء المجتمع؛ فالرَّسولُ ﷺ يقول: «**المرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجها وهي مسؤولةٌ عن رعيّتِها**»[1]. ورحم الله شاعر النيل إذْ يقول:

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر.

الأمُّ مـــدرســـةٌ إذا أعـــددتَـــهـــا أعـددت شـعـبـاً طـيّـبَ الأعـراق

فالأم الصّالحة هي القادرة دون غيرها على تربية أبنائها تربية جسديةً وعقليةً ونفسيّةً مستقيمةً، وهي التي تستطيع أن تفي بحاجاتهم الوجدانية التي لا يمكن إشباعها إلا في جوٍّ تُحيطه هي بحنانها وعطفها؛ لأنَّ المحاضن الجماعية الحكومية بوسائلها وإمكاناتها الكبيرة تستطيع أن ترعى الأطفال من النّاحية الجسدية رعايةً علميةً تماماً، لكنّها لا تستطيع أن تفي بحاجاتهم النّفسية، التي لا يمكن إشباعها إلا في الجوّ الأسريّ، الذي يتوفر فيه للطفل أبوان يشعر بأنّه يمتلكهما تماماً، أمّا في الحضانة فلا يمكن له هذا بأي حال من الأحوال، حيث يشترك عدد غير قليل من الأطفال في أمٍّ واحدةٍ. وهذا ينشأ عنه ضرر مزدوج يلحق بالطفل من جانب وبأبويه من جانب آخر؛ أمّا الطفل فسينشأ عنده نوع من الخلل النفسي، يترتب عليه اضطرابات عاطفية لها أبعد الأثر في تكوين شخصيته المستقبلية.

وأمّا الأبوان فستنزع منهما عواطف الأبوّة والأمومة ممّا يجعل علاقتهما بعضهما ببعض تقتصر على حدّ الشّهوة والجسد، فهما خاويان من العطف والمودّة التي يتمتع بها الآباء.

ومن أدبها: أنْ لا تكون نزّاعةً للسّيطرة:

قِوَامةُ الرّجل أمرٌ تُقرّه طبيعة الأشياء وتوجيهات الشّريعة، ولذلك فإنّ المرأة الصّالحة تُدرك تلك الحقيقة وترضى عنها داخلياً، فهكذا سُنّة الله في مخلوقاته. ولكنْ هناك صِنْفٌ من النّساء مريض بانحراف نفسي، ذلك الانحراف يجعله دائماً نزّاعاً للسيطرة والتّسلط. وما أسوأ حظ الرّجل الذي يقع في واحدة من أولئك النِّسوة، فهي إمّا أن تمحو شخصيته إذا كان ضعيفاً.. وإمّا أن تدفعه إلى مواجهتها والثورة عليها إذا كان قوياً..

وفي الحالة الأولى: تموت حياتها الوجدانية بموت شخصية زوجها، ويُحيط بها الضجر والفراغ العاطفي.

وفي الحالة الثانية: تُستهدف لصراع يومي يجعل من حياتها جحيماً، وقد يدفع ذلك بزوجها القوي إلى الانتقام منها بالسعي إلى غيرها أو بطلاقها.

وفي كلتا الحالتين تتصدّع حياتُها، وينهدم بيتُها على رأسها ورؤوس أبنائها، جزاءً وفاقاً لانحرافها النّفسي، ولشذوذها عن منطق الأشياء.

ولذلك فإنّ العقلاء لا يعتبرون المرأة صالحةً حتى تتميز بعدم النّزوع للسيطرة والتّكبّر، أو بعبارة أخرى: تتميز بالطّاعة والتّواضع. وقد سُئل أعرابي عن النساء وكان ذا تجربةٍ وعلم بهنّ، فعدّد صفات المرأة الصّالحة ذاكراً بينها صفةَ الطّاعة وعدم التّكبّر، فقالَ: «أفضل النّساء أطولهنّ إذا قامت، وأعظمهنّ إذا قعدتْ، وأصدقهنّ إذا قالتْ، التي إذا غضبتْ حَلُمتْ، وإذا ضحكتْ تبسّمتْ، وإذا صنعتْ شيئاً جوّدتْ، التي تطيعُ زوجَها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الذّليلة في نفسها، الودودُ الولُودُ، وكل أمرها محمودٌ».

ففي هذا القول يورد الأعرابي سِمَةَ عدم النّزوع للسيطرة عندما يقول: «التي تطيعُ زوجَها»، ويُورد صفةَ التّواضع وعدم التّكبّر عندما يقول: «الذّليلةُ في نفسِها»، وليس المقصود بالعبارة الأخيرة ذلك المعنى السّلبي لكلمة «الذّلّ»، وإنّما المقصود المعنى الإيجابي لها.. أعني التّواضعَ وعدمَ التّكبّر كما سبق الإشارة إليه.